امرأة صياد

- سامي لاجرلوف -

على سفح رابية من الرمل الأبيض، في طرف قرية صغيرة للصيادين، كان يقوم كوخ صغير تقطنه امرأة عجوز. لم يكن حسن البناء أو نظيفا رحبا، ليأخذ منه إلى جانب البيوت الأخرى القائمة دول الساحة الكبيرة، حيث تنشر شباك الصيد السمراء لتجف في وهج الشمس.

و كان يبدو أن هذا الكوخ المتواضع قد نبت هناك بعيدا، استجابة لرغبة البيوت الأخرى التي شاءت أن تزيحه عنها تعففا و كبرا.

وقد رغبت الأرملة المسكينة التي وضعت مخطط بنائه وشيدته بنفسها، أن تكون جدرانه أو طى من جدران البيوت الأخرى وان يكون سقفه الخام المصنوع من القش اليابس أعلى من سقف أي بيت آخر. وكانت أرضه غائرة في التربة، ونافذته الوحيدة، ممتدة من الأرض إلى إفريز السقف. ولم يجد التنور ولا حظيرة الأرز متسعا. لها في حجرة الكوخ، فالحقا به بشكل بارز.

ولم يكن هذا الكوخ، كالبيوت الأخرى من حوله، حديقة. تعانق فيها أغصان اللفلاف شجيرات العليق. ولم يرافقه إلى تلة الرمل من كل هذا الخضار المبذول الذي يستنج بيوت القرية ،غير شجيرات ضئيلة من

القرطب. وكانت هذه الشجيرات جميلة في الصيف بأوراقها الريانة ذات الخضرة الفاقعة، إذ تتفتح أزهارها القرمزية بين الأغصان المعقوفة. ولكنها كانت تهمل في الخريف فتصلب أطرافها وتنضج بذورها فتبدر يابسة جافة. ويغطى أوراقها الممزقة وشاح باهت من نسيج العنكبوت، فيثير منظرها الكآبة والأسى..

ولم يستطع هذا الكوخ، في ما قدر له من أمد الحياة، أن يأوي أكثر من مالكين، على التتابع، إذ أن جدرانه الرقيقة لم تستطع إن تتحمل طويلا أثقال السقف، وكان يقطنه في الفترتين أرملتان بائستان. وقد كان يلذ الأرملة التي تسكنه الآن، أن تتطلع إلى شجيرات القرطب، لاسيما في الخريف، عندما تذبل وتجف أوراقها فتبدو متعلقة بالأحجار التي حولها، متمسكة بها. وكان يذكرها هذا المشهد بالأرملة التي بنت الكوخ وسبقتها في سكناه: كانت هي أيضا جافة، ذابلة، وقادرة على أن تتعلق و تتمسك: لقد استنفذت المسكينة جملة قواها في سبيل تنشئة الولد الذي ستدفعه إلى العالم.

وكانت مالكة الكوخ الجديد، وهي تستعرض في خاطرها هذه الصورة القائمة، تشعر بحاجة إلى البكاء والضحك معا.

ربما كانت الأمور قد جرت في غير هذا الاتجاه، لو لم يكن لتلك المرأة العجوز طبيعة شجرة القرطب. ولكن، من يدري في هذه الحالة، أن كان قد قدر لها أن تسير إلى أفضل..

وكانت كثيرا ما تفكر بالصدفة الغريبة التي قذفت بها إلى هذا الشاطئ الجاف الواطي من منطقة (اسكانيا) إلى جانب هذا المضيق الصغير، وسط هذا الشعب الوادع البطيء الحركة.

كانت قد استقبلت الحياة في مرفأ نروجي صغير يقع تحت أقدام صخور حادة وعرة، تشرف على البحر الفسيح. ورغم أن والدها كان قد ترك عائلته في حالة من الفقر والضيق فقد تعودت أن ترى في ما حولها الحياة والحركة.. وكانت كثيرا ما تقص على نفسها قصة حياتها، كما يقرأ الناس كتابا صعبا ليصلوا إلى معرفة الفكرة التي أوحته..

هكذا بدأ مصيرها العجيب: كانت عائدة إلى المبيت في إحدى الأمسيات من منزل الخياطة التي تشتغل عندها، فهاجمها اثنان من البحارة. وأنقذها من براثنهها بحار ثالث عرض حياته للموت من اجلها. ثم أوصلها إلى البيت فدعته للدخول معها، وقدمته إلى أمها وشقيقاتها وحدثتهن بحماس عما فعله الشاب من أجلها. وقد خيل إليها أن حياتها أصبحت أكثر قيمة مذ تعرض شخص آخر للخطر في سبيل الدفاع عنها. واستقبلت العائلة النوتي الشاب استقبالا حارا وطلبت إليه إن يتردد عليها ما وسعه الأمر.

كان اسمه بيرج نيلسون. ويعمل بحارا على ظهر الباخرة (البيرتينا). وكان يأتي لزيارتهم يوميا عندما ترسو سفينته في الميناء. ولم يلبث أن كسب محبة العائلة الصديقة. ولكن لم يرد احد من أفراد هذه العائلة أن يصدق أن هذا الفتى الوسيم، الذي سحرهم بلباسه البحري النظيف

ويافته الناصعة البياض، كان بحارا بسيطا. كانت حركاته كما تشير إلى عادات رجل من طبقتهم، فتصوروه، دون أن يذكر لهم شيئا، ابن أرملة غنية اختار هذه المهنة عن هواية وشغف وارتبط

كنوتي بسيط ليعطي أمه الدليل على حبه الفطري لإعمال البحر. وأنها لابد أن تشتري له سفينة خاصة، عندما يجتاز مدة المران. وهكذا استقبلته هذه العائلة النرويجية، وكانت علاقتها بالعالم قد تقلصت بعض الشيء، بلا تحفظ أو ريبة.

وحدثهم بيرج عن بيته الجميل، ذي السقف العالي، بأسلوب أخاذ وقلب ينبض بالبشر والأمل. وصف لهم المدفأة الكبيرة في طرازها القديم، وبلور النوافذ المزخرفة. حدثهم عن الشوارع الهادئة الصامتة في مسقط رأسه، وعن البيوت الصغيرة المتشابهة. و كيف يشذ بيته عن بقية البيوت فيبدو بها رائعا. وكانت العائلة الساذجة تتصور من خلال حديثه، بيتا بورجوازيا من هذه البيوت القديمة العريقة تزين سقفه الرسوم، وبوحي بشعور المهابة والاحترام.

وقد أدركت الصبية بسرعة انه يحبها. وسرت الأم و الشقيقات فان السماء قد بعثت إليهم بهذا السويدي، ليبعد عنهم شبح الضيق والفقر.

لو كان والدها حيا، أو كان لها شقيق كبير، لاستعلما عن هذا الغريب. أما هي. فلم تفكر بالأمر جديا، ولم يرد قط على خاطر أمها وقد أدركت فيما بعد، كيف إنها وأمها وشقيقاتها قد دفعن به إلى الكذب وشجعنه على الاسترسال فيه.

لقد ترك لخيالهن في البدء، أن يعزو إليه ثروات ضخمة، وعندما عرف مبلغ سعادتهن في الطواف على أجنحة هذا الخيال، منعه خوفه من فقد الصبية، إن يرجع عن خداعه.

وعقدت خطوبتهما قبيل سفره. وتزوجا بعد رجوع السفينة. وقد شعرت استريد بشيء من الخيبة عندما عاد إليها كبحار بسيط. ولكنه ما يزال مرتبطا بعقد.. ولم يأتها بشيء من قبل أمه لان العجوز كانت تأمل لابنها غير هذه الزوجة.. فلا بد أن ننتظر حتى تقدم إليها وتكسب ودها.

ولقد كان بوسعها وبوسع أمها أن تتبينا فيه الفقر، رغم هذه الأكاذيب، لو فتحا أعينهما قليلا.

ورغبت الزوجة أن يكون سفرهما على ظهر السفينة فعرض عليها القبطان حجرته. وقابلت هذا العرض الكريم بفرح شديد. واعفي الزوج من القيام بأي عمل. كان يقضي معظم يومه مع استريد، على ظهر السفينة، وبذل لها كل ما استطاع خياله من سعادة، هذا النوع من السعادة التي تعود أن ينهل من معينها طوال عمره. و كان يبدو له كوخ أمه الحقير غارقا في الرمل، فلسعي به خياله حتى يرفع من سقفه قليلا، ويجور في مبناه. وتتخيل نفسها استريد وقد وصلا المرفأ المزين بالأعلام و الزهور. وتمر في عربة فخمة تحت قوس النصر فيرمها الرجال بالورود و نظرات الإعجاب، وتصفر وجوه النساء غيرة من العروس الجميلة. ثم يدخل بها الزوج إلى المقر الوالدي القديم حيث يطالعها خدم البيت

بثيابهم الرسمية وشعورهم البيضاء. وتتزين المائدة لهذه المناسبة السعيدة، بالأزهار والشموع والأواني الفضية القديمة.

عندما اكتشفت الحقيقة خيل إليها أن القبطان اشترك مع نيلسون في خداعها. ولكنها أدركت خطأ هذا الرأي. فقد اعتاد البحارة إن يتحدثوا عن نيلسون كأنه شخصية مرموقة. وكانت تسليتهم المفضلة حديث ثروته الضخمة وعائلته الكبيرة، وكانوا يعتقدون أن استريد أيضا تشاركهم هذا المزاح.

ولهذا فعندما رست الباخرة في اقرب ميناء إلى بيت بيرج كان بوسعها أن تتصور ذاتها بعد، زوجة رجل غني..

وحصل نيلسون على فرصة يوم وليلة ليوصل امرأته ويهيئ لها أسباب الحياة في مقرها الجديد. وعندما وصلوا إلى المرفأ الذي تصورته استريد حافلا بالمستقبلين والأعلام والزهور، لم تلق غير الفراغ والهدوء المعتاد. ولحظ نيلسون أن امرأته توزع في ما حولها نظرات حزينة خائبة. فقال لها: جئنا في ساعة مبكرة. وكان سفرنا قصيرا في هذا النوء الجميل. إنهم لم يرسلوا عربة للقائنا، وعلينا أن نسير مشيا على الأقدام ردحا طويلا، فالبيت يقع خارج المدينة.

فقالت له استريد: وما هم، بيرج. مضى علينا زمن طويل ولم نقم بحركة، فسيحسن إلينا المشي.

وبدأ سيرهما. وكان الطريق وعرا مجهدا لم تكن لتحمل السير فيه، حتى في أحلك أيامها، دون أن تضج بالشكوى والألم. وكانا يتقدمان في

شوارع عريضة مقفرة تتعرف عليها تبعا للوصف الذي أخذته عنها. وقد خيل إليها إنها تعرف إلى أصدقاء قدماء في الكنيسة الباهتة والبيوت المتجهمة، وكلها بذات القياس واللون.

ولكن أين الواجهة العالية المزخرفة والسلم الكبير بعواميده الرخامية؟

وارمأ بيرج برأسه كأنه حزر ما يجول في خاطرها وقال لها: انه بعيد بعد.

لشد ما كان بوسعه أن يكون رفيقا بما رحما لو بدد أوهامها مرة واحدة! لو صارحها بكل شيء! إذن لما شعرت نحوه بأي كره فقد كان حبها له عظيما. ولكنه كان يرى خوفها من الخديعة يزداد حينا بعد حين، ويستمر في خديعتها. هذا ما جرح قلبها وأشقاها، حتى لم تستطع طوال عمرها، أن تغتفره له، كل المغفرة.

عبثا حاولت أن تقنع نفسها، بأنه إنما يأخذها إلى هذه البقعة النائية كي تكون له بكليتها، ولا تستطيع التفكير بهجره. فان استرساله في خداعها قد ولد في قلبها كتلة هائلة من الجد لا يستطيع إن يذيبها أي حب.

واجتازا المدينة وسارا في السهل فرأت وديانا قائمة وحصونا منيعة يعود عهدها إلى الأزمنة الغابرة. رأت بيوتا قديمة باهتة ألون رمها بنظرات مستحية. وسار بيرج إلى اليسار في طريق جانبية، وقال لها عندما أظهرت دهشتها: إننا نقتصر بذلك الطريق. كان قد أصبح عصبيا تزقا. وفهمت فيما بعد انه قد وجد العودة بها إلى مثل كوخه الحقير، أمرا شاقا. ولم يعد يرى في الزواج من فتاة تعلوه مقاما، أمرا مستحبا، وانه كان يخشى ما تفعله عندما تعرف الحقيقة.

وسألته بعد أن سارا زمنا بين القلاع: نيلسون. إلى أين نحن ذاهبان؟ فرفع يده مشيرا إلى الكوخ في القرية الصغيرة. ولكنها مظنة يشير إلى إحدى المزارع الجميلة فعادت إليها ثقتها.

وانحدرا إلى مربعات الملح القاحلة فتملكتها المخاوف من جديد، وبد لها المكان مستنقعا بشعا. ولفحتها الرياح المالحة، وهتفت في إذنها نذر الكوارث والخيانة. وأسرع نيلسون في سيره. ووصلا حدود القرية. ولم تجرؤ استريد خلال المرحلة الأخيرة من الطريق، أن توجه إليه سؤالا واحدا. ولكن منظر صف جديد من البيوت أعاد إليها شجاعتها. من المحتمل أنه لم يكذب عليها. وطالعتها هذه البيوت بأصص الزهور وسجف بيضاء على النوافذ. ورأت أخيرا في طرف القرية كوخا صغيرا فأشفقت على نفسها لأنها اضطرت أن تجتاز ذلك الصف من البيوت الصغيرة النظيفة. وشعرت كأنها رأت هذا البيت منذ القديم في عيني نفسها قبل أن تراه في الحقيقة.

قالت له وهي تتوقف على سفح رابية الرمل: هنا؟ فأومأ برأسه، واستمر يتقدم نحو الكوخ. فصاحت به مهددة: لقد كذبت علي وخدعتني.. فعلت أسوأ ما يمكن أن يفعله ألد أعدائي.

فقال لها بصوت خافت مضطرب: أردت إن تكوني لي.

– ليتك خدعتني بشكل معقول! لماذا ملأت رأسي بأوهام هذا. الغني؟ كل هؤلاء الخدم؟ ولم أقواس النهر؟ هل كنت تعتقد إني متعلقة

بالمال إلى هذا الحد؟ ألم تشعر باني احبك بالقدر الكافي لاتبعك حيث شئت؟ و كيف استطعت أن تستمر في الكذب إلى اللحظة الأخيرة.

وتمتم حزينا يائسا: إلا تدخلي وتتحدثي إلى أمي.

– لن ادخل هذا البيت.

– إذن تعودين إلى بيت اهلك.

– بيرج. كيف استطيع ذلك ؟ كيف أسبب لهم مثل هذا الحزن العظيم، وهم يعتقدون إني سعيدة وغنية. ولكن إن أبقى هنا. استطيع إن اشتغل واكسب عيشي. وناشدها مستعطفا: ابقي يا استريد. ابقي فما فعلت هذا الا حرصا عليك.

– لو صارحتني بالحقيقة قبل هذا الوقت بقليل، لبقيت.

– اجل كنت تبقين لو قلت لك إني فقير، و كنت غنيا. وهزت كتفيها. وكانت تهم بالعودة عندما فتح باب الكوخ وظهرت أم بيرج على العتبأ كانت عجوزا ضئيلة تركت السنون أثارة وجهها أكثر مما تركته في عقلها. وكانت قد سمعت جزءا من الحديث وحزرت الباقي. كانت تعرف ابنها، وتعرف شيئا عن الزوجة التي أتي بها. قالت لابنها: هذه أذن ابنة العائلة الكريمة التي تزوجتها. يبدو لي انك خدعتها وبرات لها الأكاذيب.

وتقدمت بلطف من استريد وداعبت خدها.

– ادخلي معي يا ابنتي المسكينة، إني اعرف متاعبك. فأنت

منهكة. هذا كوخي أنا، فلن يدخله. تعالي فأنت الآن ابنتي الصغيرة ولن أدعك تذهبين إلى بيت غريب.

وبذلت لها الكثير من عطفها وحنانها، ثم دفعتها برفق نحو الباب. ودخلت استريو أخيرا وظل بيرج خارجا. وسألتها العجوز عن قصة تعرفها إلى ابنها وكيف تم زواجها. ثم بكت عليها حنانا و إشفاقا. وبكت استريد على نفسها.

وقست الأم في الحكم على ابنها: أن استريد محقة. إنها لا تستطيع أن تعيش مع زوج مثله. فهو كثير الكذب. ولكنه كان دائما وديعا طيبا، حباه الله وجها جميلا وجسمها رشيقا. وقد كانت أمه تعجب له، وهو طفل، كيف ولد لعائلة فقيرة. كان أشبه بأمير صغير تائه، ضل سبيله. انه لم يكن في موضعه اللائق قط. كان يرى كل شيء خلال نظارات مكبرة. وعندما تمس كبرياؤه كان يفقد.. الموازين. وقد كانت أمه تبكي له وترثي لحاله. ولكن أكاذيبه لم تكن قد أساءت إلى احد من قبل. كانوا يعرفونه في القرية ويكتفون بالضحك. والحق كان أمامه ما يغري هذه المرة.. أليس غريبا من در هذا الفتى، ابن الصياد، إن يستطيع خداع الناس؟ وكيف لم تثر أحاديثه الشكوك في قلب استريد.

كان يجيد تقليد الأغنياء في حركاتهم ودقائق حياتهم حتى ليبدو غنيا منذ الولادة. لقد ضل سبيله في الحياة على التأكيد. والدليل انه لم يفكر قط بانتخاب زوجة له من مستوى طبقته.

كانت الأم تتكلم وتتكلم، فتصغي إليها استريد وتتشرب في حالة حزنها، كل كلمة تقولها.

وأضافت: أترين يا استريد، إني لم استطع إن اقتلع منه هذا الكبرياء وهذه الحاجة الداخلية التي تدفع به إلى ادعاء ما ليس له من غنى وجاه. ولعل امرأة أخرى محبوبة تفوقني ذكاء، توفق حيث فشلت. انه لفتي وديع، طيب القلب. وفي ذلك ما يغري. يمكنك الذهاب غدا إن شئت.

وسألت استريد فجأة: وأين يقضي بيرج ليلته؟

– يمكنه أن ينام على الرمل خارجا. فليس لديه الشجاعة الكافية ليبتعد عن البيت.

– يحسن به أن يدخل.

– لا يا ابنتي العزيزة.. انك لا تريدين رؤيته. ولا يضيره أن ينام في الخارج. سأعطيه غطاء.

وقضى بيرج ليله على الرمل. وأرسلته أمه في صبيحة الغد إلى المدينة. كانت تفضل أن لا تراه استريد.

واستمرت تتحدث إلى الصبية. واستطاعت إن تبقيها بسحر حديثها، وما غمرتها به من حنان وعطف.

وعندما وفقت في إقناع استريد بالبقاء إلى قرب ابنها، عندما حل الوئام بين الزوجين. واستطاعت أن توحي إلى استريد بأن قدرها هو أن تكون زوجة برج نيلسون، وأن تصنع معه كل ما تستطيعه من خير، عندما أتمت الأم هذه المهمة، التي لم تكن عمل أيام أو أسابيع ودعت دنياها وذهبت إلى ربها.

ورزقت استريد طفلا. بدأت تعيش له وتحيى من اجله. وهبته كل ذاتها، ووجدت فيه، معنى جديدا لحياتها.

لم تستطع أن تغير شيئا من طباع زوجها. لم تستطع إن تعلمه كيف يكون صريحا صادقا و كيف يجد في واقعه قدرا كافيا من السعادة يصرفه عن سعادة الوهم والأكاذيب.

و غرق بيرج في إحدى رحلاته. غيبه الخضم العظيم في أحشائه الهائلة. وتبعه بعد مدة قصيرة ابنها الوحيد.

وظلت استريد وحدها في هذا القفر النائي. إلا أنها تعلمت كيف تستسلم لمشيئة القدر.

ولم ترد قط أن تواجه أحدا من أهلها. كان يخجلها أنها أصبحت شبيهة بنساء الصيادين..

وكانت تكسب عيشها من صنع شباك الصيد، ولكنها لم تكن تدري، على التحقيق، لماذا تعيش.

لو استطاعت، على الأقل، أن تسعد شخصا واحدا في الوجود أو تجعله أفضل مما هو!...

ولم تقل لنفسها مرة، أن المرأة التي ترى أن حياتها قد ضاعت هباء وذهبت صدى. لأنها لم تستطع أن تصنع خيرا مع أي كائن بشري، إنها قد تكون بذلك وحده، قد أنقذت روحها.